ممدوح عدوان

للريح ذاكرة ولي.....



شعر

دار الآداب

أهداء الى
الوالد والوالدة
سنان حسن علي
الحارث وشتيبة
مع أطيب التمنيات
أحمد رمضان
22/5/97

للريح ذاكرة.. ولي

ممدوح عدوان

للريح ذاكرة.. ولي

شعر

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى

١٩٩٧

دعاء افتتاحي

يا إلهي
إنّ وضعي غير خافٍ
ولذا أختصر الشرحَ الطويل
أعطني يا ربّ خبزي
وكفافي
أعطني شيئاً يُعافي
غير أنّ الخبز وحْدَهْ
غيرُ كافٍ
أعطني شيئاً لكي أسترَ عجزي
أنت تدري أنّ هذا العجز مخزٍ
أنا أحتاج إلى ما يسند الظهر قليلا
ثم ما يملأ البطن قليلا
ومن الأمراض شافٍ
أعطني يا ربّ بعد الوجبة الأولى فراشاً هانئاً

وامرأة ساخنةٌ ساذجةٌ

تقبل من أفعى ثماراً

مغريات بالقطاف

أعطني من حيث لا أدري غناءً

تهجع الروح إليه وتلافي

أنا أكثرت

ولن تعطي

سأبقى راكضاً أطلب خبزي

ناشف الريق وحافِ

شعـــر

كلّ شـيء صـار موزوناً مقفّى

صـار محدود المعاني

مجلس الشعب،

المسيرات

نظام السير

تصميم المباني

وقفة الناس أمام الفرن

دور النّاس في السجن

مواعيد الولادات

الجنازات

الأغاني

والأماني

كلّ شيء صار موزوناً مقفّى

فلماذا تكتب الشعر الحديثْ

يا خبيثْ؟

أغنيـة البجـع

أغنّي للهوى القتّال أغنية

على طلل عفا وحطامْ

أغنّي كي أنقّب في بقايا الصمت

عن أشلاء مجزرةٍ

يغطّيها اخضرارُ كلامْ

وها إنّي عثرت الآنْ

على شيء سأفعله بلا استئذانْ

أموت..

لكي أفاجئ راحة الموتى

وأحرم قاتلي من متعة التصويب

نحو دريئة القلب

الذي لم يعرف الإذعانْ

سأحرم ظالمي من جعل عمري

مرتعاً لسهام أحقادٍ

وأرضاً أُجبرتْ أن تكتم البركانْ

أموت، وقد نزفتُ مخاوفي
لم يبق منّي غير جلد فارغٍ
قد صار كيساً فيه بعض عظامْ
فصائغ يأسيَ المقرور فرّغني من الأحلام
خذوا جسدي
خذوا جسدي الذي أضنيته
أهملته ونسيته
حتى تحوّل صرّة مهروءةً
صارت إلى عبءٍ
خذوا هذي النفايه
لم تكن إلاّ نباتاً شبّ في دُمَنٍ
وكانت مرّة وطناً
وإني أترك الثدي المعبّأ بالمرارة
معلناً صوماً وعمر فطامْ
سئمتُ نجاة روحي
والخراب يلفّني أملاً
سئمت براءتي من هول هذا الجرم
صرت أغصّ بالماء

الذي يطفو عليه الذلّ
إن حياد سجني مفعم بالذنب والغثيانْ

أموت..
أكيدكم علناً
فلا أصفرُّ من خوفٍ
ولا أرِدُ التقيَّه
كي أغنّي مرغماً في مأتم الأوطانْ

أغنّي الآن أغنيتي:
سلاماً اصدقائي قاتليَّ
تمرّغوا في نُعميّات الذلّ
كي تطغى على طلبي
سلاماً عتمة الآفاقْ
سلاماً إنني أسري بغير براقْ
سأسرق ضوءهم.. وأغيب
كي يتذكّروا، إنْ جدَّ جدُّهمُ،
بأنّي كنت بدرَهمُ
وأنّ نهايتي موت لهم وظلامْ
سلاماً يا نهايتنا

تعالي واحضنيني

دفِّئيني من تسلّط غربة في الرّوح

وهْي تجفّ كالحطبِ

أعينيني لأهرب من حياة،

فُصلّتْ لي في غيابي،

صارخاً:

فلتشهد اللّهم لا عيني رأت شيئاً ولا أذني

أكون إذاً فِراشاً خارجاً من جثّتي النتنه

سأبدأ من صليبي؛

قد تطول بدايتي

وتمرّ أمّي لا تردّ علي فضل ردائها

ولا تومي: ترجّلْ أيّها الفارسْ

ودربي كان أوّله الصليب

فما الذي أرجوه خاتمةً

وهأنذا أُطلّ اليوم في صمتٍ

وحيداً فوق أخشاب الصليبِ

فلا أثير الرِّيَبْ

وأبصر ما خشيت وما عرفت كعالمٍ بالغيبْ:

رجالاً يهرمون بلا سنين
وعارهم قد حطّ مرتاحاً محلّ الشيبْ
وليس لديهمُ رمقٌ
يذكّرهم بما في عمرهم من عيبْ
سأخرج من ظلام الصمت، أفضح عالم الأسواق
أكشف لعبة كبرى
أقول، إذا استطعت،
بيأسكم بعتم.. ولكن لا أبيع
فورّثوا اليأس المساوم وارثاً غيري
أقول لعالم يبدو من الزنزانةِ:
اسمعني
ولا تسمع فحيح اليأسِ
هم صنعوا لنا يأساً
لكي يضحي لهم ستراً
وكي يضحي لنا عذراً
وهم صنعوه كي يسترسلوا في اليأس
ثم يجود جلاّدٌ، يجمّل ذلّنا،
ليصير زيف كلامهم لقتيلنا قبرا

وينسينا دماء كُليبْ

سأنزل عن صليبي كي أصارحكم:

أريد كليب

وثأر كليبَ لا يخبو مع الأيامِ

بل يتعتّق الثأرُ

أريد كليبْ

ومعجزة بمعجزةٍ

فليس دم البسوس الآن أقدس من دمانا

ليس ثأر النوق أشرف من دمي

وكما تبنّوا حلمهم وأتوا إليَّ به

سأحضن حلمنا، وكما أرومُ

سأُتعب الدنيا

أرادوها المعاجز؛ فلتكن

طلبوا الذي يوماً تبدّى مستحيلاً

ثم صار لهم:

فإمّا ناقةٌ مذبوحةٌ وتقومُ

أو حُضُنٌ تعبِّئه النجومُ

أوِ المقدس،

آه يا ظهري وآه أخي،

ببحر دمٍ يعومُ

تحقّقت أحلامهم

أبناء عمّي حقّقوها

ثم عاد أخي ببحر دماه...

أية سكرة تكفي لمحو رؤاه

كيف أرى دموعاً تستحمّ بها اليمامه

كيف أهرب من دمي المحرور

أية غُلمةٍ ستدومُ

من يصحو إذا سكرت من الحزن الكرومُ

أنا أريد أخي

وأبناء العمومة

من يقولون انتصح

وافهم

ولا تطلب لدينا مستحيلاً محرجاً

وأخي يجندله ابن عمي

ثم ينصحني الجميع بأن ثأري المستحيلُ..

أنا أريد أخي

أخي وأريده حيّاً
أخي وأريده منكم
وليس لديّ تبريرُ
سوى أني أريد أخي
سوى أنّي أنا الزيرُ
أنا المحراث والنيرُ
وثأري قائم أبداً
فثأري عمرُه أبدُ
وإن لم أستردَّ كليبَ
عمري كلّه زبدُ
ولست بخائف مما يجيء غداً
لأنّ غدي هو الآنا
هو الآتي الذي كانا
أخي.. وأريده:
من بسمة العينين
حتى نبضة الجرح المفاجئ في استقامة ظهره
من مفرق الشعر الوسيم
إلى السقوط مجندلاً فوق الرمال

من الإباء على الجبين

إلى خطاه المثقلات بعزّه

وأريده بالعنفوان الصعب في صمت المجالس

بالمهابة عند تدليل الصغار

أريده كي يهدأ الدم في تدفّقه

من الرجل الذي لم تفهموا ما يعتري بدنه

أنا البحّار جاء إلى صحاراكم

وقد أحرقتمُ سفنه

أتى ليرى لديكم عمره

لكنكم أهدرتمُ زمنه

يسير بعريه علناً

لأنكمُ طمعتم بالفتات

فبعتمُ كفنه

فهذا ليس عمراً يرتديه

وهذه الأحوال لن يُرضي بها وطنَه

ولن يَرضى الإقامة في فراغ من كلام

بعدما أفرغتمُ مدنه

وكم عمراً لديَّ لكي أسامحكم

وأنسى أربعين سنه

وأيّة أربعين سنه

مضت لم تزرعوا في القلب

غير دمامل ٍسوداء محتقنه

وباسمكمُ تقول: كفى

إذا جنحوا إلى سلمٍ سنجنح

كلّ ميت يستردّ حياته

أو يرتدي كفناً من النسيانْ

ليخفي تحته عفَنه

إذا جنحوا

إذاً هذا زمان الجانحين

وكلّ ما عشنا جنوحٌ

أربعين سنه؟

وأيّة أربعين سنه؟

قبلت بها عذابي واتِّساخ دمي

وسرقة ضوء عمري

والمجازر والجنائز والجوائز

حاجة الأطفال

والتشريد والترحال

كذب القادة

الطغيان

لا...

يا أيّها الهاوي الذي يتهجّأ الإذلال

بلاد اللّه ليست من متاع كي تباع

وإنّها مجبولة بدمائنا

قبل التقايض حولها

أرجعْ إليَّ دمي

وأرجع لي شباباً ضاع منّي أربعين سنه.

ويبقى بيننا دَيْن عريق ليس في الدنيا له ثمنُ:

ستبقى بيننا المدنُ

هي المدن التي جاءت إلى أهلي

وصارت من أريج البيت

ردّدها الكبار حكايةً

ذابت نشيداً طازجاً

وتغلغلت لتطرّز الأحلام

نامت في سرير الطفل

تحضنه

يقبّلها

تقبّله بكلّ حنان

وتمنحه رنين اسمٍ

فيصبح بيتنا في السرّ خارطة

به أولادنا مدنٌ

هنا حيفا.. هنا يافا.. هنا بيسانْ

فكيف أقول للمدن التي صارت بنيَّ:

تراجعي.. لم يبق في دنياي بعدُ مكان

وأخرج من هموم البيت والمذياع

ألقاها معلّقة بأسماء الشوارع

والمدارس والحدائق والمتاجر

كلّ ما في عالمي أسماء

وأسماء الذين تجندلوا من أجل أن تبقى لنا مدنٌ

معلّقة بأجراسٍ من الذكرى

تحنّ لنا وتعطينا المواعيدا

ومن ذا يرجع الأمواتَ

والأصواتُ وسط جنائز تعلو أغاريدا

ومن سيعيد لي ذاك التجمّل

كي أرى ذُلّ الهزائم غضبةً

ومجازري عيدا

أغنّي الآن أغنيتي

وأحمل مرهقاً غضبي

تعالي يا يمامة واحفظي نسبي

تعالي طوّقي قلبي بحلمك

قبل أن يذوي ويغدر بي

كفى بالموت نأياً يا يمامة فاصمدي

لا تجزعي

كل الأنام رأوا دمائي

وهْي تُعجن لي رغيفاً طازجاً

وطحينُه تعبي

فقولي للحواشي من بنات العهر:

أرض اللّه حضنٌ للمهلهل

أنت مُحْصنةٌ بما حُمّلتِ ثأر الأباة

ولست رزق سبي

وصيحي بينهم بجبينك المرفوع

عُباداً لشمس غرّبت:

زين الشباب أبي

خفيفاً مرّ.. لم يثقله ذنب

وانتقى موتاً سيحسده عليه نبيٌ

وإذ يمضي قتيلاً لم يُمتّع بالشباب

شبابه يبقى ويطلع بي

غداً سيجيء أبنائي

أعلّمهم:

يسمّون الذراري مثل أسماء المدائن
بينهم يافا وحيفا.. بينهم بيسان
ومن موت الغريب وغصةّ الأيتام
نبدأ حقبة أخرى
تليق بجذرنا العربي
أموت إذاً
وآخذ عمريَ المهروء
والمدن اليتيمة والجراح
ولا أصالح واحداً فيكم
أموت إذاً
لأبقى بينكم خجلاً يُعرِّيكم
إذا ذُكرت مدائنكم
لتسعوا لو تُشقَّ الأرض
تبلعكم وتخفيكم
تدارون العيون السائلات
بتهمة راحت تسميّكم

أموت إذاً

وأترككم بلا ستر يغطّيكم

بلا أمل ولا سلوى تعزّيكم

عراةً.. لا مطامح لا مدائن

لا إباء ولا كرامه

لا متاع لرحلة الدنيا ولا دينا

فروحوا الآن

تسلّوا عن مواجعيَ التي انفجرت

لتدميكم

وقولوا: عاشقٌ حنّا

وقولوا: شاعرٌ جُنّا

ولن تنسوا بأنا دائماً كنّا

نغنّي في أماسينا

ونبكي في مآسينا

فلسطينا....

مصياف

الأهل في مصياف   والروح توّاقه

يا ليتني صفصاف   أو زهر درّاقه

لأبلّ حلقي الجاف   في نبع وراقه

تتجمّع الأطياف   في الرِّيح كالباقه

والريح في التطواف   للدمع سبّاقه

ريح بذاكرتي

وكنت الطفل يركض في الظلام

ملاحقاً بالحشرجاتِ

يسوقني خوفي

عينان تلتمعان

عينا مارد

وبصيص جنيٍّ بعينَيْ هرّةٍ

أأقول: باسم اللّه أفضح نيّتي؟

أم أُسلم الساقين للريحِ

ريحٌ بذاكرتي

ومصياف التي جاءت تصيّف في الجبال

تغرّبت عن عمرها

وتشرّدت في الوعر مثلي

برّدتها الريح في الصيفِ

ريحٌ.. وقاعٌ صفصفٌ

أشباح خيل في الظلام

مكامن بين الصخور

وقلعة تبدو بعتم الفقر كالطيفِ

الميتون استكثروا التكفين والدفن

ارتموا بين الحراج

تكفّنوا بالزعتر البرّيّ والريحانْ

صاروا ربيع الزيزفون

ولوّنوا ألق الندى

وشقائق النعمان

مصياف تسخو بالحنين

فتنشر الدفلى كنهر دمٍ

وتسقيه من النزفِ

فيفتّح اليتم الذي فيها زهوراً
والجراح بها عطوراً
تشرئبّ حرائق الرغبات
من أعماق فاقتها وفتنتها
بحب يملأ الدنيا بخوراً
تستفيق بموتها بستان
يَسْتيقظُ العشق الدفين
وراء خط الفقر
يوقظ رغبة الشبّان
وترى الصبايا شهوةً للحبّ
تسطع حمرة في جمرة الرمّان
بنت لها أسرار   والصبّ في الطاقه
ولد غريب الدار   والبنت عَشّاقه
يا قاطف الأزهار   حوّش لنا باقه
حرز الهوى يشفي   من عاطل النيّه
والريح تكنس زهرنا المشتول
فوق مقابرٍ حيّه
ريح بذاكرتي

وكانت تستثير الدمع قسراً في طفولتنا

كبرنا الآن

ما للدمع في الذكرى يسحّ؟

أذكريات الريح كالريحِ

أم أنّنا اعتدنا على نوح الرياح

فهدّأت أوجاعنا

اعتدنا على عيش الكفاف

وصار كلّ يرتضي جسداً بلا روحِ

الوحشة امتزجت بنبض دمائنا

ليريحنا دمع التماسيحِ

ريحٌ بذاكرتي

وخوف قاتم كالغاب

أم ضيف بدا بالباب

والغدر المخاتل قابع في الناب

- أهلاً

لم يسلّم

واستراح هنيهة

وأنا أحدّق ذاهلاً في وجهه

ويلفّني رعبي
هذا الغريب صديقنا
يأتي ويذهب دونما سبب
وكلّ زيارة للبيت
نخرج في الوداع جنازة
يا ضيف لم نبخل عليك
أطفالنا وشبابنا ارتاحوا لديك
وشيوخنا حنّوا إليك
فعلام تحمل كلّ هذا القهر والبلوى
إلينا في يديك
يا ضيفنا قد جئتنا سرّاً
لتسكن في ربى مصياف
وأنَخْتَ رحلك بيننا كي تبدأ التَّطواف
يا ضيفنا لو زرتنا في هدأة
لوجدتنا نحن الضيوفَ الطارئين
وأنت ربّ المنزل المضياف
خذ ما تشاء
وإن رغبت فحلٌّ في «برك الدراويش»

الذين سفحت فيض دمائهم
وأقم إذا أحببت فوق «المشهد» العالي
ليبقى ظلّك الأبدي
فوق صدورنا صخراً
وخذ دفء البيوت
فنحن نمضي خلف قافلة الرياح
وسوف يرشدنا إلى المنفى دليلُ
لم يبق من أعمارنا إلاّ القليلُ
والفقر عوّدنا
طوال حياتنا
ما جاءنا إلاّ الأنين الغضّ والبخت الهزيلُ
يا ضيفنا
خذ ما تشاء
ودع لنا ضوءاً على الدربِ
أهلاً
ولم يسمع
وراح يفكّ صرّته
وينشر أوجه الأحباب في قلبي:

هذا صديقٌ غاب في سجن

وهذا مات من قهر

وهذا تاه في المنفى

وهذا راح في الحربِ

أبكي لذكراهم

وأسأل رحمة الريح الشقيّةَ

أن تليِّن قلبه نحوي

يلملم ما يشاء.. ولا يودّعنا

يسير بصمته المشبوه

يمضي تاركاً لي ما تبقّى

من توجّع صاحبي قربي

وذهول أصحابٍ خبا من عمرهم

ألق الهوى وتآلف الصحب

داروا طويلاً حول ضوء فاتر داروا

غرباء في الأوطان ما فُتحت لهم دارُ

يا مشفقون بحقّ طه المصطفى داروا

هذا الغريب فزاده لمع السرابْ

يا صاحبي

أين احتجبت طوال هذا القهر؟

كيف نسيتني؟

ورجعت مصحوباً بهذي الريح

تُعول كي يظلّ برقبتي ذنبي

تهوي وما أنهيت يا بطلي الصراعا

حاربت حتى انهرتَ؟

أم كسرتَ سيفَك واليراعا؟

زمنٌ عجول شدّنا بضجيجه

لم يُبقِ للمقتول وقتاً كي يُوَصِّيَ

للمشيِّع أن يبوح بدمعة

لم يُبق للجلاّد من سبب

ليمسح ما تعلَّق من دمٍ عن سيفه

لم يبق للمفجوع أن يلقي السلام أوِ الوداعا

تهوي فندرك أنّ بارق عمرنا

قد لفّه إهمالنا أو خوفنا

فخبا وضاعا

تهوي لنذكر عتمنا أو موتنا

هل أمحلت أيّامُنا؟

لم يبق إلاّ الموت للتذكير

وهو يصول في الأرواح يحتطبُ

لا بدّ من موتٍ كهذا

كي يلفّ القهر ذكرى

يحتمي في حضنه ناءٍ ومغتربُ

لا بدّ من موتٍ كهذا

كي نقول: حياتنا جفّت

سراباً ناشفاً في الحلق

ما عادت تغرّ الخلق

ما عادت تُطاق

ونقول إنّ الحلم أقصر من شهيق النزع

إنّ العمر أضيق من خناق

لا بدّ من موت كهذا الموت يُبْلغنا

بأن الشمس تخسر من أشعّتها

وأنّ الخيل كدّشها وبغّلها

التجحشن في فوارسها

فما عادت تصول بهم

ولا تثبُ

لا بدّ من موت العماليق

الذين بمجدهم يتجذّر الحَسَبْ

ليظلّ أقزامٌ مناكيدٌ

فيفتخروا بأجداد عماليقٍ

إذا انتسبوا

فلنعترف قدّام هذا الموت

أنّ الأرض جرداءٌ

وأنّ أوابد الأجداد فينا بلقع خَرِبُ

أنّ السلالات التي كانت فخار الأرض

تسعى لانقراضٍ

ينتهي منها الهنود الحمر

والبطريق

والأشجار

والأنهار

والحيتان

والأكراد.. والعربُ

صاروا صغاراً أو كباراً في مقاس العصر
خارج حاجة الأسواق
والأسواق ما احتاجت سوى الجثث
التي فقدت ملامحها سدى
يرسو عليها العرضُ والطَّلَبُ
جثث.. وتصلح للبرامج
والإعانات – الإهانات
التي من أجلها تُستعذب الخطبُ
جثث ستربكنا
فنجفل وهلة
لكن يجيء لنا الوداع معلّباً مستورداً
ويسود فينا الصمت حتى في العزاء
وقد تساوى الندب والطَّرَبُ
لا فرق بين النّاس والقطعان
حين تُسلق للمرعى
تُسمّن للأضاحي
لا فرق ما بين النباح أو النواحِ

لا صوت يشبه صوت إنسان
سوى هذا العويل المرّ
محمولاً على حزن الرياحِ
الريح تُعْوِلُ
تقلق الأموات
إذ هجعوا بذاكرتي
وتصخب في سكون اللّيل ندباً
تسحب الآهات من قلبي
الريح قد عرفت بأنّ الموت مُدْرِكُنا
فخافت
وارتمت مثل الطعين
وعبأتْ ليل الأزقّة بالصياحِ
وتعلّقت أجراسها لترنّ في ليل الحزانى دمعة
كي لا ينام الميّتون مخدّرين
بكاذب النّدب
لا بدّ من ريح كهذي الريح
كي نتأمّل المرآة في رعب

إنا هنا موتى

وقد لبسوا حياتهمُ قناعاً

والخوف شيّد حولهم مدناً

فأعلى الفقر فوقهمُ قلاعاً

ساروا وراء جنازة أُعجوبةٍ

كم من قتيل كان في التابوت

كم من ميِّت عزّى

وكم من قاتل أحيا لنا حفل العويل

وقد أتانا بعدما اكتملت فصول المجزره

ومضى يصلّي طالباً للميّتين المغفره

أنا شاعر أو شاهد متورِّط

لم يلق متكأً له في مفخره

بدمٍ تُرى؟

أم بالدموع ملأت هذي المحبره؟

وكتبتُ شعراً كي أُعزّي؟

أم رسمت على الدفاتر مقبره؟

نتعمّد الإسراف لنُستّر الفاقه

الزاد خبز حاف		والنفس أفّاقه
الدمع نهر جاف		ما بلَّل الياقه
والرِّيح في الأعطاف		ذكرى بلا طاقه
يبكي لنا الصفصاف		فنحنَ كالناقه
تابوتنا مصياف		والقبر ورّاقه

قيرون(*).. مكان في الذاكرة

(*) قيرون اسم قرية الشاعر

١ - قمر

هذا الوادي

صحنٌ للزاد

فرشة ترحيب

مُدَّتْ للدرّابين

توارى في حمرتها الأجداد

وتشيطن فوق لحاف الخضرة خبث الأولاد

فقروا فيه البيضة نيّئةً

فتعرّت في الوادي أشباح

مدّت أيديها لتشيل صفار البيضه

قمراً يقفز بين الجبلين

ولا يرتاح

والظلّ الفوّاح

يتمطّى في نومته كلّ صباح

والشمس الكسلى

تترك للقمر الساح

تتلكّأ في الحرش

إلى أن تدفعها الرِّيح

فتنداح

٢ - شجر

شجر أم صبايا؟

هزّتِ الريح أغصانه؟

أم تمايلن في غنجهنّ

وشمّرن عن سمر سيقانهن الثياب

وترافقن حوراً

يلوّيه عصف الرغاب

يتمسّكن بالستر

يعرقن في لهفة وارتقاب

شجر؟

ولماذا إذاً تتفتّح عينٌ

على ورق الحور

تغمز ضاحكة؟

أو تفكّ النسائم، صبحاً،

عُرى برعم الجلّنار؟

تتعرّى لنا حلمة منه

تسطع في دمنا كالعذاب؟

شجر؟

بل صبايا تخطّرن في وقفة خادعه

تظاهرن بالسير

يبقين قدّامنا

كلّ واحدة أتقنت نظرة وادعه

أتقنت غنجها لتذيب قلوب الشباب

٣ - تعيب

منذ صباحات اللّه
وهْو ينحّ وراء المحراث
ويضرب بالقظمه
يتسلّى بالتعشيب
يطقطق في صمتٍ عظمه
فإذا حرّضه الهمُّ لكي يكره ظلمه
لعن الوسواس الخنّاس
التجأ إلى استغفار اللّه
حتى تتعب عين الشمس
تغمّضها وتغيب
وتلمّ الضوء عن الدُّنيا كي يرتاح
فيلحقها بالآه
ويتمتم منتظراً فرج اللّه
فإذا غبّشت العين ولفّته الظلمه
ظلّ إلى الفجر يئنُّ عتابا.
فمتى يرتاح من التعتيب؟

وحدانيٌّ ما صادف رحمه
لم يرزقه اللّه بصدر حبيب

لم يرزقه اللّه بصدر حبيب
ليس له من دنياه نصيب
هذا التعتيب
آخر ما تتركه الدنيا من متعة
آخر دمعة.
ظلّت لتريح التّعَيّب

٤ - الجدة

الجدّة تشكل تحت عصابتها «الأوفا»
وتمدّ لبقرتها صوتاً مألوفا
تجلس ساهمة
تتفقّد غيّاباً
أو أمواتاً

تصغي في النوم إليهم

إذ يأتون من الذكرى أصواتاً

لا تسمع من ناداها

تقبل أن السمع ثقيل

وتظلّ مع الغيّاب إلى أن تذهب معهم

تغفو في ظلّ الشجره

والدمعة بين تجاعيد الخدّ

كأنّ الجفن تألّم مطروفا

وتخور لتوقظها البَقَره

فتقوم وتنفضهم عن طرف البال

تلهّي النفس بتنهيد من ألم الظهر

وتبدأ تقطيف الزوفا

٥ - الجبل

جبلٌ وغِرٌّ يتسمّى بالحرفْ

وأنا منذ فتحت العين

رمدت بلمح من طرفْ
فاجأني النزفْ
أتأمّل عتماً يتدلّى من فوق الجُرف
أقفز في لجّته
ومعي شيء من خبرته
وإذا الحرف هنا وعرٌ
يتستّر بالظرف
والصخر الملفوف بشوك
شعر صِرْف

٦ - الصبية

حسناء تهزّ الخصر مجاكِرةً
فتنشّف في الأفواه الريقْ
قوس رباب في الخصر،
وعرس في الضحكه
والآه تُمدّ أمام الخطو طريق

حتى السنّ، إذا ابتسمت،
والبسمة طافحة كالنبع،
فللسنّ بريق
يشلع قلب الصبّ
يكاد يلاحقها بزعيق
تبعق أعضاء الجسد الشبِقِ
إذا عبقت جدولتها فوق الزيق
والتصق الثوب على عرق النّهد
التمعت رجفته
يدعو للتطويق
تترك شرراً يتساقط من مزق الثوب
فيبدأ في الأضلاع حريق
تخلو الدنيا من سطوتها
وهي تضوع مراوِغةً
يمتلئ القلب بغصّته
يخنقه الضيق
وتمدّ الصوت بأغنية
فتؤجِّج نار التعريق

ويجنّ الدلب بسكرته

يترنّح حور كي يلمس رماناً

ينهمر التين المعسول

على عنب الروح

فيلتهب السجريق

٧ - صخور

سكاكين هذي الصخور

يثلّمها خطوهم

حفاة مشوا فوقها من دهور

وأقدامهم علّمتهم بما حفظت من سطور

فطاروا على وعرها كالصقور

ومن حفنة من تراب

تجود بها الرّيح

أو يعجز السيل عن حملها

يلمّون موسمهم

وإذا ضنّ عنهم شتاء
يجيئون رعداً
يفجّر فيها الينابيع قسراً
هنا رفعوا صخرةً
زرعوا شجْرةً
هنا رفعوا صخرةً
وبنوا مقبره
وبين الصخور
رأوا نجمة تتدلّى
على خيط ضوءٍ
تبارك شيئاً غفا في الصخور
فجاؤوا لها بالبخور

٨ - ساقية

ساقيه؟
تلك أمٌّ حلوة آتيه؟

الصبيّة تلمح عاشقها
فتميع مغنِّجةً
تحت نظرته صافيه
تتأنّى لكي تتذوّق نظرته
وهي تسقي وتشرب
تسكرها الداليه
تلمع الشمس في سرّها
فتداري
وتستر إفصاحها
بسمة تسرق القلب
ثم تنسلّ في مائها جاريه
في أمان الصديقات
تفضحها ضحكة
تترقرق خجلانةً
ثم تلتفُّ بالفيء مزهوّة راضيه
هل ستسقيننا قطرة؟

قد نشفنا

ونحن وراءك

يا ساقيه!

٩ - جنية

جنّيّة عاريةٌ

تخوض في النّهر

ولا يرتفع الماء إلى الرُكبْ

في شعرها أفعى

وثدياها قُرَبْ

طفل رآها

ورأى عانتها

ثم رأته،

التفتت إليه

فارتعب

لم يتذكّر أن يسمّي

لطشته

لطف اللّه به

لم تأته الضربة في عينيه

أو في قلبه

تذكّر اسم اللّه فاقترب

أوّل طفل بيننا رأى،

ودون رفقةٍ،

جنيّة.. ما يبّسته كالحطب

١٠ - ثعالب

عواء الثعالب

أم ذا بكاء الصغار

أمِ الريح تلهو على شجر يابسٍ

في القفار

أمِ الأقربون تخفّوا

ولم يُعرفوا في تقمّصهم

فبكوا غربةً
وتنادوا حزانى
إلى مخبإٍ وسط حرش المزار
أمِ الجوع يملأ صمت بطون الثعالب
ويبكي بإلحاح طفل مشاغب
فينهره والد خَجِلٌ
من بكاءٍ أمام الصغار

II - قرية

قيرون ليست قرية
ليست مكاناً آمناً قد كنت فيه أحلمُ
بل إنّها
رمّانة مكنوزة
تشقّقت بالبرد
حين تصلّبت سال الدمُ
وأتى إلى جنّاتها جنٌّ

أرادوا أن يبيعوها كلاماً خادعاً
فتلعثموا
مزجوا دماء التين والزيتون
والعنب المعرّش
فارتووا.. وتعمّموا
وتنفّس الجبل المخضّب
أو تثاءب قبل غفوته
ففي الوادي فمُ
وتنهّد الحلم الرخيُّ
فنام فيه المعدمُ

١٢ - الريح

تتخبّط ريحٌ على الباب.. تقلقنا
تتسرّب ريحٌ من الباب
نفتحه علّنا نستريح
ونهدّم حيطاننا

كاشفين عن الستر
ينتفض الفقر من غفوة ويصيح
نتعرّى لنسبح في بؤسنا
فتغور المياه
ويبقى من النهر هذا الضريح

١٣ - الشتاء

وليس الشتاء
سوى أغنيه
صدىً يتخزّن فيه اشتياق «الروابع»
يكنُّ ليسمع خفقات ندب الجنادب
وقد نسيتْ أن تموّن في صيفها
والنمال التي لم تجد
ما تموّن من صيفها
فتوارت بأحلامها في الخرائب
وليس الشتاء

سوى نقلة الثعلب المتسلّل
فوق رؤوس الأصابع
تفاجئه في الزوايا الكلاب
فيفتح في الحرش أضلاعه للزوابع
عجائزنا
لا يخافون غير رعود الشتاء
لذا.. كلّ شيخ يصلّي
بأن لا يفيق على خبطة الرعد
موت ينام بأضلاعه
ولا يفتح الموت عينيه وسط المنام
ويَنذر أن ينتهي البرد
هذا الشتاء بخير الأنام
فإن مرّ لم يوقظ النائم
كان السلام
وإذ بالشتاء
ربيع تخزّن
قيّل في السنديان
ليجترّ عرس الضفادع

وهذا الصفير
شياطين أطفالنا
سخرت من رياحٍ
تشمّر عن حورها
وتطير

١٤ - البيادر

قلبي يحب البيادر لأجل ركوب النوارج
تمشي بنا في دوائر كأنّنا في هوادج
القمح لمع جواهر والتبن صار مدارج
وطرحة كسوارٍ تسدّ كلّ المخارج
للنمل فيها نصيبٌ وللطيور الدوارج
الشمس وهْي لهيبٌ تُنسى بغمر المباهج
فوجهُ حسناءَ قربي خبز طريٌّ وناضج
عيناي في وجنتيها لحنٌ أليف ودارج
واللّيل يأتي ببدرٍ يأسو القلوب اللواعج

يلفّنا بالنوادر والحُب كالزاد طازج
قلبي يحبّ البيادر لأجل ركب النوارج

١٥ - المكان

مكان رسا ذاكره
تمدّد عمراً
وكان
سماءً كتنّورةٍ
لُبست فوق لحمٍ
تأجّج تَنّورُهُ
فوق أمنيةٍ فائره
فمن يشتهي من؟
ومن يترقّب ما يتموّج في الخاصره؟
ومن يتستّر بالنظرة الفاتره؟
تُرى فكرةٌ عابره؟
أم العين تطلق ضحكتها داعره؟

أم الريح تلهث بين الدوالي
غناءٌ تخمّر
كي يتعرّق
في جنّة الحلم
حيث السكارى
لهم وحدهم آخره؟!

١٦ - المعاصي

المعاصي ابتدأت من هذه اللّعبة
من أجسادنا نعرفها حين نعوم
بدأت من سحر ما ليس لنا
وهو شهيٌّ في الكروم
وجمال القفز
من أجل نجاة اللصّ بالحصرم
ما بين الحواكير
وما فوق التخوم

واستراق النظر الذاهل

نحو المستحمّات

بأفياء الشجيرات

لكي تمتلئ العين ضباباً وغيوم

وادّعاء النوم حتى يغفل الأهل

فنسترسل في عدّ النجوم

١٧ - التنور

ما أسعد التنّور

إذ يجمع الحلوات

ما أسعد التنّور

الخبز دوماً فيه

والجوع لا يأتيه

ما أسعد التنّور

دخانه دعوه

للعابر الجائع

ووهجه قدوه

للشارد الضائع

يضم سرّ الدور

في دفئه الرائع

يدعو له النسوه

وجمره شهوه

ينام كالمخمور

لكنْ به جذوه

ما أسعد التنّور!

يرتحن في السرِّ

من الهوى المستور

ومن شقا العمرِ

الزهر في الجمرِ

والقلب كالمهرِ

والخوف مثل السور

إنّ الهوى يغري

لكنّه محظور

ربيعه منذور

والهمس إذ يسري
يبقى له ناطور
في جذوة التنّور

حسناء لا تلهو
لا تكشف المستور
لكنّها تسهو
على المدى المبهور
في حلقة التنّور

العشق إن هاجا
لا تستحي منهُ
والسرُّ قد ماجا
على ضفاف النّور
لكن أفواجا
من الهوى المذعور
تُطلّ في الديجور
يا ربُّها صُنْهُ
في حفرة التنّور

الزهر في التنّور

يهتزُّ مغناجا
فإن نأت عنهُ
يهبُّ مهتاجا
وإن دنت منهُ
يشبُّ وهّاجا
في صدرها البلّور
ما أسعد التنّور

١٨ - الولد

قيرونْ
فارقتك حين اشتقتك
طرتُ إلى أفق مشحون
ضاق الأفق وصارحني أنّي مسجون
آهٍ.. يا أهلي في قيرون
آهٍ.. لو تدرون!
اليوم سأعرف

حين ترون

هذا الهذيان بأنّي... مجنون

١٩ - خنزير

قلت للخنزير:

مادمت محبّاً للذره

صرتَ معروفاً بخنزير الذره

تأكل العرنوس... مفهومٌ

ولكن

غصنه

ما الذي يدعوك حتى تكسره؟

قال لي:

كي تعرفوا كيف تكون الخنزره

٢٠ - طيران

ذات يوم

وأنا وحدي أسير

خلت أنّي سأطير

خلت أنّ الأرض

أرخت جذبها عنّي

كما تُلقى قيودُ عن أسير

سأطير

وكأنّي اخترت أنّي لا أصير

كنت أدري

أن هذا ليس تقدير القدير

تلك شطحات خيال جامح

صار لديه العزم

أن يسعى لتغيير المصير

مرثيــة متأخـرة

قفْ يا نسيمي

أين تمضي يا رجُلْ؟

قف وانتبه لخطاك

خلف خطاك دمْ

العزم تتلفه الرطوبةُ

وهو مخزون.. فقلْ

قل أيّ شيءٍ يا رجلْ

ما عاد ينفع أن تشدّ شكيمة الألم

الذي يسعى إلى حضن الندم

ما عاد في الأيّام متّسعٌ

لكبح الـ«لا»

وإيماء الـ«نعم»

لا تندفع بخطاك

لا تسمح لعثرات الطريق ترجّ جسمك

فالنزيف يزخّ أمطاراً على وقع القدمْ
والنسمة السمحاء إن مرّت عليك
ستوقظ النّار التي كمنت
فتطلق فيك ألسنة الألم
قف...
يا قتيلاً يتقن السرّ المنغّم في جنازته
يقطّر عمره متوكّئاً يأساً جميلاً
مسنداً يده على كتف العدم
قف يا رجلْ
قد أتقن الجلاّد فعلته
ومنّى النفس أن السلخ
قد عرّاك من ستر المُثُلْ
جاء القضاة مدجّجين
وأشرعوا تلك السكاكين التي
شُحذت لتعزف لحنها في اللّحم
ثم تقدّموا بصدورهم
ليجرّب الجلاّد فيهم سيفه
وليشحذ النصل اللّئيم

على العظام

تلمّظ كلّ حقدٍ وهو يلحس جرحه

وتطوّع اللؤماء خدّامين

يرضيهم بأن يتمدّدوا للدوس

وانسربت شكاوانا إليك

كأنّنا جلدٌ تمزّق عنك

أو نبضٌ من الضوء ادلهمّ

أرضى الموالي فيك مولاهم

فردّ أمانة الجلد السليخ

قال: سِرْ في الأرض

واختر ما تشاء من السبل

إن طال دربك طال فيك القول واعتبر الورى

قف يا نسيمي

لا تظلّ معرّضاً تدمى

ويجرحك النسيم عقارباً

ما عدت تقوى أن تجدّف وسط طوفان الأعادي قارباً

قف واكتشف فينا حمىً وأقارباً

لا تنسَ أنا قد نموت ونحن ننزف فوق نطعك

أن كل دمائنا لم تكفِ فيهم شارباً
والأرض حافلة بما يُخزيك أو يُبكيك:
قوّادين باسم الدين
جلاّدين مكسوّين بالتمدين
أين تروح في هذا الخضمْ؟
لا..
لستَ مهووساً تُكلم طيف جنّيٍّ
وصمتك صرخة منثورة في كلّ فم
لا..
لستَ سكراناً
وإن رنّحتَ خطوك
إنك الآتي وتبدو ذاهباً
والنازف القاني وتبدو شاحباً
سيظلّ وقتك غائباً
ويظلّ صوتك عائماً في بحر سكراتٍ
وتمشي راهباً
متخفّفاً من عبء جلدٍ
كلّما استعصى عليه تتبّع الخطوات في المنفى

ثقُلْ

دفعوك تمشي مفرداً متنكباً

شيئاً تهدّل كالعباءه

قف يا رجل

قف.. أنت تمشي فوق نارٍ

وسط غارٍ مغلقٍ

يبدو بلاداً تزدهي

والمرتمي المجرور خلفك

جلدُك الخاوي

فكذّب ما تقول لك الرؤى

قف.. أنت ميْتٌ يا رجل

شرب الدم المسفوح لا يشفي قتيلاً.. يا رجل

إن كنتَ أنهيتَ الكلام

فإنّني مازلت أنوي أن أقول ولم أقل

فسِّر لنا:

كيف الشقائق فتّحت في مرج جلدك

بعدما المرجوُّ في الدنيا ذبل

وأنينك الدامي

تعلّق فوق أبواب الربيع
فجاهدت حمّى العواصف
كي تزيل العار،
لكن لم يزُلْ
قل: كيف طال اللّيل في إشراق خيبتنا
وليلك لم يطلْ
لا تمضِ وحدك يا نسيمي
لا تكفّن ذلك الهمُّ الذي أضناك
أنت رفضت تكفين البدن
وهجرت جلدك راضياً
تأوي إلى دفء التعرّي
تقبل المنفى سكن
متخفّفاً من كلّ قبر
كلّ عمر
كلّ جلد.. أو كفن
ميْتٌ يسير مكابراً متجلّداً
كي لا يريح الشامتين
وصامتاً كي يحرم الصوت ارتجافاً

أو عِتاباً.. أو شجن

قف يا نسيمي

لستَ حرّاً أن تموت

ولست حرّاً أن تعيش

فأنت كونٌ مرتهنْ

حاورتَ جلاديك ما أسمعتنا

أبقوك كي تمشي بنا نحو المسالخ كالغنم

الياس باغتنا وزلزلنا

أتانا في الهزيمة كالهزيمِ

لم ينته الهذيان فاسمع يا نسيمي

إن شئتَ أن تمضي

فقل لي مَنْ غريمي

قل لي.. أخاف السمّ في كأس النديمِ

ما عدت أطلب جنّةً

والأرض قد صارت جحيمي

آمنتُ أنْ لا بدّ من هذا الجنون

والموت أضحى وحده الخلّ الحنون

لا بدّ من صوت على نطعٍ

وقولٍ جارح في وجه سكين

فقل لي أي شيءٍ يا نسيمي

قل غير هذا النزف

تكفيني استدارتك الفخورة

رفعك الجلد المدمى كالعلم

يكفي عذاباً يا رجل

يكفيك رفضك للندم

يكفي..

فهمنا كلّ شيء

من نزيفك يا نسيمي

فلتمضِ في صمت

لتبقى عندنا تلك الشيم

سيظلّ في الدنيا مكانٌ لائقٌ بالموت

رأي يستحقٌّ الموت

درب شائك

لنسير فيه مع الرسل

يكفي.. الهزيمة نبلها يحكي

فهمنا يا نسيمي

تابع الصمت الثقيل

وتابع النزف النبيل

ولا تقل

* نسيمي شاعر صوفي من الحروفيين اتُّهم بالإلحاد وحُكم عليه بالسلخ حيّاً في حلب. وجاء القضاة والأئمة يجادلونه ويجادلهم فيما عمليّة سلخه مستمرّة. وحين انتهى السلخ وضعوا جلده على كتفيه واطلقوه. وظلّ يسير وينزف.....

ينحـني لرنينـه

صمتاً

دعي لغة التنفّس وحدها تهدي
اجلسي حدّي
لنوقف عجمة الكلمات
نبدأ من فصاحة صمتنا
المقروء منذ تلامس الأيدي
اتركي كفّي تهامس رعشة الزغب الحرير
فأوقظ النغمات واحدة فواحدة
دعي رجف المسام يجيب لمساتي
ارتخاء الجلد تحت أصابعي يحكي
يميّل عتم أسوار المناعة دونما جهدٍ
معي يستسلم الجسد المحايد
حين يعرف نفسه
أو ينتمي لنعاسه

فيجيء فوجاً بعد فوجٍ
أو يفيق فيعتريه الهمس موجاً بعد موجٍ
والأصابع وهي عمياء
تسيِّرها بصيرتها
تبادئ في تعرّفها
فتصعد من براءتها إلى زندٍ
تجيء القشعريرة من تلاين مرفق
نلغي حياد أنوثة الجسد الرخيّ
فينحني لرنينه
صمتاً
تَراخَي في فتور الهمس
واستتري برغبتك التي
ستضيق بالأثواب والقيدِ
انشري في الصمت إيقاع التواصل بيننا
واسترسلي لحكاية شَرَدَ التشهّي حولها
وأصابعي تحكي لجسمك دفأها
فلكلّ بارحة من الجسد الشجيّ
رنين شهوات يفيق به

لكلّ تناعس في الجلد كلمته

لكل برودة في الجسم وقت رحيلها

في خفق ترتيلي

لعنقك حين ألمسه

دموع في مدى العينين

خدّك حين يدفأ في يدي

سيصير طفلاً حالماً يغفو على صوت الرِّياح

يصير أماً

تسكب الروح الرؤوم مع الحليب

وألتقي جسداً يُضاء بشهوة

كالوجه يسطع بابتسامته

وأنت لديّ آمنة

كما تأوين نحو الحضن من بردٍ

كأنّ يدي ستشدو

وهْي ترعش فوق ناي الجلد

توقظ لحنه نبضاً فنبضاً

ثم تنعتقين من هذا الغياب

تُهاونين لتلتقيني

مثلما تستسلمين لدفقة في الدمع فاترة
وينتشر النماء على مدى الجسد الربيعيّ
النعاس يَلِمُّ بالأرض التي سئمت تكتّمها
فتطلق كلّ أسرار البراري
تُطلع الأعشاش
هذا عرسها متلألئٌ
تخضرّ شهوتها
كما تحمرّ بشرتك الحنون
بوهج أزهار الرغائب
زقزقاتُ اللُّحُم الملفوف في عش التشهّي
وهْو يدعوني
وها أنفاسك الحرّى أفاقت
وابتدت تزقو
وأوّل ما تسرّب من تعرّق همهمات فيك
يكشف عن لهيب كان مستتراً
يتيح له التفشّي في امتلاء الصدر
يوقظ نبضة النهدِ
ابدئي التسليم

كي تتحرّر الأفراح في عرس
كما تستسلم العينان تحت يد النعاس
فتغلقان نوافذ الإصغاء
حتى يستجيب النهد في خدر
كما يتبسّم الأطفال في نوم الهنا
يتبرعم الدفء التهافاً
ثم يزغف في خلايانا
رشيمٌ للعناق بلهفةٍ ينمو
لصدرك في انسكاب العنق سقسقة تغنّيني
أُمرِّغ مجه أشواقي على نغماتها
فأحرّك التحنان
في الصدر الذي يصحو ويدنيني
وأسمع في لهاث القلب يقظة كمْأتين
على تخوم العين
يرعش جفنها فرحاً
فيوقظ حلمة مسّته ساهمة
تفتّح ضوع برعمها لهمسة وجنتي
ولنحل جوع فمي

أهمّ بها .. فأسمع خفق قلبك في دمي
تتكشّف الأستار عن إشراقة الجسد المجيد
تشبُّ لهْفاتٌ
تعودتُ التعلّل ساتراً لفح استغاثتها
ويبدأ فوج أفراخ الجراد بجوع يقظته
تعالي منك نحو تأجّجي
ودعي لكل خليّةٍ ضوضاءها
وجنونها
فأصابعي بدأت تؤذّن للقيامة
في ندى جسد حميم فاتر
يتحرك البحر الذي يسهو بجسمك
ينتشي بالجزر والمدِّ
اسمعي
تتسارع الموجات في الهمسات
حتى يلتقي الجسدان عاصفة
تهبّ الريح خيلاً جامحاً
تتراقص الأشجار خالعة عذارَ الرّوح
تنزاح الستائر عن لظى الوجهين

تندلع الرغائب
كلُّ ثرثار من الأعضاء يطلق صوته
وجنون عتم القلب يجمح غامضاً
فنصاب بالرعدِ
اصمتي إن شئتِ
رعشتك الطليقة وحدها ستصيح
تطلق ما تشاء،
وما جهلتِ من التأوّه والبكاء
وشهقة
لم تأتِ في عقمِ اللّغات
الرعشةُ انفلتت
وأطلقَتِ العصافير
الزنابق
فرحة الطوفان
ثورات الينابيع
البسيني
واخلعيني
وابدئيني

المقت

أنا، والوجه الذي كنت،
جلسنا نحتسي الخمرة
أفسحنا مكاناً وسط فوضى العمر
ضوّأنا بساطاً وسط عتم البيت
مدّدنا على الأرض لفافات الشجون
أوصد الباب
لكي لا يفسد الخلوة، طيشاً،
من يشاء
أصدقائي مُتعبون
ربما جاؤوا إلينا بنبأ
ربما جاؤوا ليحكوا نكتاً تجرح
أو يستعرضوا بعض الفتوحات بأجساد النِّساء
عالمي يتعبني
إنّني أُنهكتُ في سعيي
لأن أسبر أغواراً

فألقى في القرارات المرارات
وأُنهكتُ ادّعائي
أنني أقبل ما يُنفث في تلك العقد
سوف نلتفُّ بصمت
ليس للمذياع أن يجترَّ ما نعرف
عن أعداد قتلانا
وعن ألوان بلوانا
ولن أسمح للنغم الجارح
أن يمعن فينا
أو لإيقاعٍ جموح
ربما يغري برقص ومجون
إنّني أدخل في قوقعتي
مكتفياً بالقدرة
أن أحبس دمعي
لم تعد تأتي إلينا الريح
كي تصغي أمام الباب
أو تسترقَ النظر الماكر
كي تنقل همساً حذراً

تعلكه بين الملأ

فجنون الرِّيح قد قرّ أخيراً.. وهدأ

كان صوت الرِّيح يبكي ثم يُبكينا

وقد يوقظ فينا الحاجة

للصدر الحنون

سوف نبقى ونداري العزلة الخرساء

نرتابُ

سنبقى مفردَين

حيث يعلونا من الصمت صدأ

- نخب ماذا؟

يتناءى...

ثم أدنيه بأن أسحب حبل الذكريات

لأعيد الودّ

- هل تذكر كم كنّا صديقين؟

وكم كنا شبيهين؟

وعيناه ابتدتا باللوم:

أوغلتَ كثيراً

ولماذا هذه النظرة؟

ماذا فيَّ كي يجعلِ ما يربطنا

حَبْلَ مَسَدٍ؟

لم يعد في العمر إلأنا

ولن يأتي أحد

ترتمي الصحراء في البيت

الكآبات استفاقت

وجهه يرتدّ للظلّ

لكي يخفي جفافه

والمسافه

بيننا تزداد كأساً بعد كأسٍ

وجهه يخبو

وعيناه تغيمان

فلا أرفع رأسي

- جرّب المزّة

جرب جرعة الماء

لفافه

لا تغب في عتمة المرآة

لا تشحذ على قلبيَ نصلك

هذه الأوجاع زارتني
وعرّتنيَ قبلك
إنّني أشرب كي أزداد قرباً منك
أو أرجع مثلك
أولا تذكر كم كنّا شبيهين؟
لماذا هذه النظرة؟
هل صرنا عدوّين؟
وما ذنبي إذا كانت لياليّ كوابيس
وعمري من زَبَد
أنت لم تخسر طموحاً وقيم
لم تُضع فرصة وهمٍ
أنت لم تُلقِ بما خزّنت
في بئر العدم
لم يُجفِّفْ حولك الماء
لكي تمشي وحيداً
بين أهل من رمم
أنت لم تفقد أحبّاء
ولم يقتل أغانيك الندم

أنت مازلت فتيّاً

وقد استقبلت هذا الصبح

بالبسمة والهمسة

صبّحتك فاستنكرتَ

راوغتَ

ومهّدتُ لكي نضحي نديمين

فلم أجلب إلى البيت أحد

وافترشت الأرض

أترعتُ لنا الكأسين

أهملت البلد

والولد

- نخب ماذا؟

- نخب ما كنّا

وشيءٌ حارقٌ حطّ على الوجه

تغضّنْ

كان عهدي أن في الخمرة نشوه

ها هما اثنان

وهذي خمرة تجعلنا نزداد قسوه

نشرب الجرعةَ

كي تملأنا حرقة صدر وقرف

وتعرّي خيبة تعلو كرغوه

كلّما همَّ بها الشارب تزداد نشافه

ليتني حوّلت مرآتيَ عن موضعها

ليت صديقاً جاءني

ليت امرأه

تجلب الرغبة كي أغفل عنه

وأداري الذكريات الصدئه

ليت شيئاً يُطفئ القلب

يصفّيه من اللّيل

ومن بعض الأغاني الموجعه

لم يكن لي بدء شربي بالشجون

ليس لي منجى

فوجه واحد يفتح أبواب الجنون

ووجوه كالحات

قد رغبناها بيوتاً

واستحالت لسجون

هوذا يقبع قدّامي قميصاً خلقاً

مرخيٌ مهدّلْ

مثلما تفعل في وجهي السنون

والذي يهتري الآن بمرآتي

هو الوجه الذي

سوف أكون

على مهـل

على عَجَلِ

سأخلع كلّ أقنعتي على عجلِ

بلا خجلِ

أعرّي دفق رغباتي

على عجلِ

أُوضّح صبوتي

وكأنني أدنو إلى أجلي

تعالي..

قدْر ما في البال من عجلِ

لكي يبقى لنا الوقت

فهذا الوقت ملْكٌ لاشتهائي

الغوصَ في عينيك؛

كلّ تمهّل يفضي إلى مللِ

تعالي دون أسئلةٍ

كما تتنفّسين هواء حلمك

واستريحي منك

أو فلتنفضي هذا الذي يكسوك من وجلٍ

وكوني نبض ماءٍ

نَزَّ من صخرٍ

وغيماً حطّ مرتاحاً على جبلِ

لنبدأ كلّ شيءٍ نبتغيه معاً

على مَهَلِ

يذوب الثلج في اللقيا.. على مهل

وخمرك قد تعتّق لي.. على مهل

سأشربه على مهل

أذوقك قطرة.. قطرة

وأسترخي لكي تتسرّبي

حتى صميم الروح

تنْسربي إلى قلبي

على مهلِ

وأنفخ كي أُزيح رمادك الغافي

عن الجمره

أشمّ وميض ضوئك قطرة.. قطره

أُريحك في دمي سكْرا

أبلّ الريق

أقرأ رعشة الجسد النضير

بكلّ أحرفه على مهل

أُلامس رجفة الزّغَب النمير

وأوقظ النوم المعشّش شعرةً.. شعره

ليأرق حين يعرف هاجس القُبَلِ

يؤوب النحل بالنجوى

ليغري الحبّ بالعسل

وتنفتح النوافذ عن هجير الروح في صمت

أحس عذوبة النسمه

إذا العيون تجانبت

فتنسّم البسمه

تُصفّي الشهد في غَزَلي

يسيح إليك حتى تسمعي منّي الحكاية

وهْي برقٌ ضاق بالجُملِ

وأبدأ في هداية بشرة غنّاء

مثل هداية الرُّسل

أمرّ نسيم صبح راعش

فأشمّ في خصلات شعرك

ضوع ذاكرتي

أحنّ كثاكل الإبل

تعالي كي تجوبي في دمائي

واستحمّي فيَّ عارية

لأزلق ناعماً سلساً

على الجسد السموح

كقطرة العرق التي تنساب شاردة

فتنعشك البرودةُ

دون أن تخشَيْ من البللِ

أُرنّم فيك إيقاعي لأوقظ حلمتين

سترفعان معي نعاسهما على مَهَلِ

وتبصرني يداك

أريح فوقهما رضيع فمي

فترتبكان في فرح

على إيقاع جوع دمي

وإذ تتفتّحان

وتزهران كرفة الحلُمِ

يموج الضوء بينهما

فيقتربان من ناري على مهل

تعرَّي في سكون البيت

وانكشفي على المرآة

واستلِفي لها عينيَّ

يتعبك التنقّل في فضاء الصدر

من خجل إلى خجلِ

أعيدي الغوص في المرآة

سوف ترينني

وأُطلّ من عينيك

أهتف: يا أنا

فيجيء صوتي منك

لا ندري

أقلناها معاً

أم نحن صرنا كِلْمةً

هربت معي من شوقك الخَجِلِ

وحيكت مثل خيط من حرير القلب
مسحوباً على مهل

على مهل
على عجل
على عجل
على مهل
وماذا قلت؟ لا أدري
على عجل نطير إلى ظلام
لست أعرفه
ولكنّا سندخله على عجل
نضوّئه على مهلِ

قصيدة يوسف

ويموت يوسف مثلما كنّا نموت
ولكل ميْتٍ قصّة تُحكى:
قبيل الموت حدّثنا
قبيل الموت أبكانا
وأضحكنا
قبيل الموت كان يتوه في الدنيا
يجاهد مثلنا كي لا يموت
ولكلّ ميْت قصّة تُبكي:
قبيل الموت كان يقول ما يوحي
وودّع
ثم صالح من يخاصمهم.
لعلّ القلب كان دليله
بل قبل أيّام رأى أحد دلائل موته
في الحلم:

ما معنى سقوط السنّ؟

ما معنى مجيء الميّتين إلى الطعام؟

جلبوا له زوّادة، وَدَعوه –

لم نشهد دماً يجري

فما فسد المنام

ويموت يوسف كي نحوّله

إلى صور تلطّف عمرنا

حزنٍ به يحلو الكلام

***

لكنّ يوسف مات قبل وداعه

– في الحلم أو في العلم –

أخوة يوسف انتبذوه قبل الموت

(أطفال الحكايات الجميلة كلّهم

ضاعوا صغاراً

ثم ظلّوا في حكايتهم صغاراً)

ظلّ يوسف في الطفولة ألف عام

كبَرتُهُ

ودفعته نحو الرجولة

قبل أن ينهي الفطام

لكنّ أخوة يوسف افتقدوه،

ما وجدوا أباً ليغصّ في قهرٍ

فيعميه البكاء

وتحيّروا بقميصه البالي

فليس على القميص دم

تلوّن بالرياء

لم تَبق أمٌّ كي تردّ بسحر رائحة القميص

إلى ضرير القلب

ومضاً من ضياء

لم يبق ذئب

كي يُحمّل وزر مقتول

ويخفيه الدعاء

وقفوا نعزّيهم

ويوسف بينهم متقبّل فيهم عزاء

شيخ غريب

ظلّ ينشج وحده

وحفيف ترتيل على شجرات بلّوطٍ

يمدّ على التراب تنهّداً

يهدي سبيل الذاهبين المسرعين

إلى الوراء

شيخ يمدّ أمام من وقفوا بساطاً من سكوت

ويعود يوسف بينهم

متنكباً زوّادة القهر المعاتب:

كان يبحث عن أخٍ

حبٍّ يقيم الأود

تحنانٍ يُحيل الماء،

عند الضيق، نبع دمٍ -

ذبالة عمره لم تكْفِهِ

كي تصبح الأعذارُ قوت

فيعيش يوسف...

كي يموت

***

عشرون عاماً يستميت لكي يموت

ويروح يوسف جاهداً

يسعى يرمّم بالغبار قلاعه المتهاويات

وكنت أتبعهُ

ويجيء شيخ للزيارة

يستفيق بيوسف الكرم الذي أخشاه

ينهض باسماً للضيف

لكنْ كنت أمنعهُ:

يا يوسفَ اليتم المبكّر

ليس كلُّ مسافرٍ يأتي أباً

ما كلّ وجهٍ باسم أماً

ولا كلّ الذي يلج الحمى ضيفاً

ولو ألقى السلام

فاسمع كلامي

أنت غرسٌ من يديَّ

وزوجتي شربتك يوماً في الوحام

عشقتْك أختك

أنجبتك، وكنت صعباً في الولادة

جئتَ في ولدين

واقتسماك بينهما

فكن ولدي

وساعدني لنحفظ أمن هذا البيت:
لن يأتي غريب في غيابي
الموت يأتي في الرياح
وفي الصباح
يجيء في الأعداء
لكن قد يجيء مع الإخاء
للبيت حرمته
فلا تفتح لخبط الموت بابي
هذا اللجوج يزيد إلحاحاً إذا أكرمته يوماً
تعلّمْ كيف تردعهُ
كن في غيابي سيّد البيت العزيز
وكلّما ثقلت خطا الموتى عليه
تزيد في قلبي مناعتهُ
صدرُ المجالس واسعٌ للأوفياء
صدرُ المجالس حيث نختار الجلوس
ونحن نرفل بالإباء
وحياتنا مستورة وكريمة
مهما يضيّقها على أعناقنا الحرمانُ

والفقرُ المعشّش كالعناكب

والظلامُ المطمئنَ إلى البقاء

وحياتنا تكفي، ولو ضوّلت ذُبالتها

بصيص العزم يسعفنا

لنعبر هذه الدنيا الشحيحةَ

والدموع جهاد أعيننا

لكي تتحسّنَ الرؤيا

وليست من بكاء

ويشبّ يوسف

مثل حور يشرئبّ إلى السماء

ويظلّ بين يديّ بعض العمر

حسب مقاس يوسف

كنت أصنعه

أحتال، أُنكر نزعه

أتجاهل الموت الذي يُغويه ماء

وأصدّ يوسف حين يطلب رشفةً

ويلوب من ظلمأ.. فأخدعه

سرّاً أذوّب بعض عطف عابر

وأقدّم الكأس المحلّى بالقصائدِ
علّه يرضى، ويجرعه
وأظنّ أنّي سوف أنفخ في يباس الطين روحي
أنّ غصن العمر، مقصوفاً،
يطاوعني فأزرعهُ
وأرى على أطرافه المتراخيات نثارَ ريشٍ
أعطيه بسمتيَ الأخيرة
علّني أُخفي
بأني كنت، في سرِّي، أودّعه
وأشجّع الأهل الذين تهيّأوا للندب:
«مهلاً.. قد يعيش»
ويعيش يوسف
مثلما كنّا نعيش

***

أقتلتُ يوسف
عندما كبّرته؟
أفتحتُ شرنقة
وطالبت الفراشة بالتكوّن

قبل موعدها

وكانت تستريح بخدرها؟

أقتلت يوسف حين قلت له:

تعال من الحكاية

لا تظلّ بها صغيراً ضائعاً؟

أسلخت عنه طفولة كانت تدفّئه

وما ألبسته

لو سترة من نسج خيط العنكبوت؟

أحشرته في زمهرير لا يلائمه

ليصبح مثلنا

متستّراً بالبرد من ذعرٍ

ويرجف كي يدفّئ نفسه كذباً

يعيش بكسرة الفرح الفتات؟

ما ضرّ لو أمضى بقيّة عمره طفلاً

وظلّ العقل ينعم بالسُّبات؟

أَوَلا نموت اليوم من غيظٍ

ومن ندمٍ

لأنا قد كبرنا؟

كم نحنّ إلى طفولتنا، ونحن نشيخ،
نوغل في البيات
عشرون عاماً مرهق من حَمْلِ موت كالحياة
ويجرّ جيفة عمره قبل الممات
يرجو بلا خجل: سأرفع رايتي البيضاء
لا يا يوسف اسمعْ ما أقول
فأيّ عمر مكسب
سنُتِمُّ رحلتنا ولو في بطن حوت
فيعيش يوسف مثلما كنّا نموت

***

وأفيق حين يصيح يوسف وحده
في عتمة الصحراء
يعرف أنّ هذا الصوت منبوذ
ولا أحد سيسمعه
سيظلّ يصرخ
كي يعرّي كلّ مخلوق من الأعذار
حين يراه خالقه
ولا يأتيه شافعه

خلقٌ

قميص الحلم مهترئٌ

يفرّ العمر كالعصفور

حتى يلتقي سهماً يطيش

ما الفرق أنّا قد يئسنا أو تعبنا

يسقط العشّ الصغير

ويرتمي الفرخ اليتيم

لُحَيمةٌ من غير ريش

ويميل عنّا مرهقاً

كالبرعم العطشان يحني حلمه

يتقدّم الشيخ الغريب إليه يسنده

وبأغنيات حانيات، مثلما هدل الحمام

أماً رؤوماً جاء للباكي يهدهده

حتى ينام

وعلى بساط اللّه

في فيءِ يقيه ضجيج صحبتنا

يمدّده

ويطنّ وهمُ العمر يعسوباً

وعطف الموت يطرده

شيخ غريب لملم الموتى

فأبعدهم عن البرد الذي نحياه

دفّأهم وعافاهم

وأبقى في هواجسنا السقام

يا شيخنا خذنا إلى أفياء غربتك الحميمةِ

وأنتزع منّا قرابتنا

لنحيا في وئام

ما قال شيئاً

بل تطلّع نحونا

حتى على أفواهنا يبس الكلام

عدنا، وفي أرواحنا حَسَدٌ يجيش

سيموت يوسف بينما نبقى نعيش

واحد + واحد

مرثية أخرى لخالد نزّال

ضوءُ الشهادة بيَنٌ
مَنْ أوّلَهْ
ودمُ الشهيد حكى الحكاية كلّها
سوّى الطريق بطلقة
مَنْ عدّله
وهو الذي عرف العدوّ.. أعدَّ له
لينازله
فمن الذي استلّ الخطا نحو الشهيد
وكيف غافلنا
وفي مهج المحبّين استبدله
في أيّ بنك يُصرف المفقود
كي يضحي فقيدينِ
والقبر قبرٌ واحد
هل فيه متّسع
لكي يحوي شهيدينِ

فبأي ضوءِ نُوِّر التأبين
حتى لا أميّز ما ترى عيني
وأنا الصديق موزّعٌ
أعدو إليه لكي أفي دَيني
ما كنت إذ سقط الشهيد بجسمه الممشوق
بين السابله
(يا حسرتي ما أطوله!)
ما كنت موجوداً أمام الموت
وهو يُتِمُّ فعلته
ويترك صاحبي ملقى
ووحدي مقبل كي أنقله
ويدي القصيرة لم تصل للجفن
وهو يرفّ رفّته الأخيرة
لا يلاقي مشفقاً كي يُسبله
(يا حسرتي ما أجمله)
عنديَ أمانات سأوصلها إلى أحدٍ
وهم يتقاسمون غيابه
يتشاجرون على معاني المقصله

هل سوف نعرف آخر الدرب
الذي سرناه مستهدين ضوءَ دمٍ
كما عرفنا أوّله؟
أم نكتفي بالأنبياء وبالوصايا المُنزله؟
نرضى بأوّل خطوتين
ونرتضي الماضي لنا زوّادةً
تكفي الذين تكفّنوا
كلٌّ سرى في عتم جلجلة
وأمعن حاملاً مستقبله
أيقظت جثّته لترشدني
فلم تقبل
وردّت فوقها تابوتها
أيقظتُ ذكراه التي في القلب
لم أُفلح
وصارت غصةً تُدمي
فعدت إلى اتّجاه البوصله
أبصرت قدّامي العدوّ
وحوله أحلامه مسترسله

كان الشهيد يرى عدوّاً واحداً

فأعدّ له

كان العدوّ يرى عنيداً

لم يحوّل عنه ناظره

فتى يبدو

كأنْ قد جاء من كتبٍ عن العشّاق

يفضحه بخفق القلب صاعقٌ قنبله

هجم العدوّ يشدّ صاعق قلبه كي يُبطله

هذا العدوّ الواضح القاسي

الذي صرف الليالي ساهراً

كي يقتله

ما أعدله!!

يده كانت رحيمة

يده كانت رحيمه

وأنا كنت وحيداً في العراء

أنطوي، أخفي غضوني وجنوني

ثم أبكي

قدر ما يحلو لأمثالي البكاء

كنت مرمياً على الأرض التي

لم يبق لي أمّ سواها

يده كانت رحيمه

كملاك حطّ من عطف السماء

حاملاً ما احتجت في أحلك أيامي

إلى بعض العزاء

يدُ إنسانٍ،

نصير اثنين في وجه الفناء

يده تمسح شعري

ثم تربيتٌ على ظهري

يزيد القلب قوّه

وتراخيت لكي أرتاح في دفء الأخوّه

بعد أن لفّعني بالعطف لكي أخفي خوائي

يده تمنحني الهمّة أن أنهضَ

أن أشكره

أكشف عرفاني

للحظات من الحب حميمه

ذكّرتني بلياليّ القديمه

بزمانٍ كنت فيه

عند أهلي وأماني

بزمان كان بالأمس زماني

أرفع الرأس،

فلا أقوى –

يدٌ أقوى من الحبّ –

وهمهمت لكي يفهم ضيقي

ثم غمغمت لأشكو

ولأرجوه بأني مُوهنٌ

من طول أيّامي العقيمه

لم أعد أقوى على النطق
وصدري الآن مضغوط على الأرض
ثقيل ذلك العبء الذي كان عزائي
ليتني أُفهمه أنّي تضايقت
وأني...
آه.. دعني!
وتململت قليلاً
كانت القبضة تقوى
وأنا أعجز حتى عن أنيني
كفّه تقطع في عنقي وتيني
لم تعد كفّ الذي يشفق أو يرحم
بل كفّ الذي ينهي غريمه
هكذا تبدأ في الصمت وبالحبّ
جريمه

الفهرس:

أنا شاعر أو شاهد متورّط

لم يلق متكأ له في مفخره

بدمٍ تُرى؟

أم بالدموع ملأت هذي المحبره؟

وكتبتُ شعراً كي أُعزي؟

أم رسمت على الدفاتر مقبره؟



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر